الاثنين 18/3/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (4)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

نحن في تفسير آيات من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾. [الكهف: 6-8]

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان يعمل في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن أشرف عمل تنال به القرب من الله تعالى هو عمل الأنبياء فعملهم يقوم على إخراج الناس -بإذن الله- من الظلمات إلى النور، والأخذ بيد العاصي ليجعلوه طائعاً لله تعالى، ومساعدة العاق ليجعلوه باراً، ومعونة الغارق بالملذات والشهوات لإخراجه من حمأة الرذيلة ليصلوا به إلى إنسان تستقيم أخلاقه وتعتدل روحه ويحسن تفكيره.

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعا القوم إلى الله تعالى فاستجابوا له سُرَّ لاستجابتهم؛ لأنهم خرجوا من عذاب النار إلى نعيم الجنة، وإن هم بقوا على إصرارهم وسوئهم وفجورهم تألَّم لأجلهم فأنزل الله تعالى عليه هذه الآيات أنْ لعلك يا رسول الله مهلكٌ نفسك أسفاً وحزناً على هؤلاء المشركين الذين لم يستجيبوا لك.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

مَا: هي لفظ من ألفاظ العموم، فكل ما على الأرض جعله الله تعالى زينة لهذه الأرض من مال وأولاد وزوجة ومنصب اجتماعي وشهادة علمية وشباب وقوة وبحبوحة ذات اليد...

إلا أن هذه الزينة وجدت لأجل الاختبار والابتلاء ليرى الله من أَحْسَنَ العملَ منكم.

يقول الله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2] فنحن في اختبار سواء في الأزمة أو قبلها أو بعدها، فالمرء يختبر بالصحة والمرض، والقلة والكثرة، والقوة والضعف، والراحة والشدائد...

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (**ابْتُلِينَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا، ثُمَّ ابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ بَعْدَهُ فَلَمْ نَصْبِرْ**). [الترمذي]

فمعنى الكلام بلاء السعة والبحبوحة والجاه أصعب من بلاء القلة والضعف والمرض والشدة.

ترى أناساً فقراء يلتجئون إلى الله تعالى حتى إذا وسع الله تعالى عليهم استخدموا هذه الزينة والمال في المعاصي والفجور.

إنسان يكون ذو مركز اجتماعي متوسط أو بسيط فتراه منضبطاً بالشرع حتى إذا صار صاحب منصب وصار الناس يمشون وراء ذيوله أُعجب وتباهى وتكبر وظلم وآذى الآخرين.

قبل الأزمة كان هناك أناس يُطْلِقون أبصارهم إلى الحرام، فلما جاءت الأزمة ارتدعوا، إلاَّ أن هناك أناساً لم يرتدعوا وبقوا على ما هم عليه.

يا أيها الإخوة يراجعني في كل أسبوع أشخاصٌ ليسألوني عن قصصٍ تجعل الحليم حيراناً ويشيب لها الولدان، فمع أن الموت صار قريباً فلا زِلْتَ ترى إنساناً يأخذ مال أخيه ولا يخطر بباله أن يعيده.

هناك لفتة جميلة في هذه الآية وهي أن الله قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، **فالناس مع العمل أربعة أنواع:**

1- أناس يعملون عملاً ضاراً.
2- أناس كسالى لا يعملون.
3- أناس يعملون عملاً حسناً.
4- أناس يعملون عملاً أحسن.

هذه الآية فيها حث لكل مؤمن وسامع وقارئ على أن يذهب نحو العمل الأحسن.

إذا توقف عملك القديم فعليك أن تعمل وتصنع وتنشئ عملاً جديداً، وإن لم يكن مأجوراً فليكن غير مأجور فهناك أناس يعملون في العمل الخيري والتطوعي لساعات طويلة ويحتاجون إلى أحدٍ ليعمل معهم، فالمهم أن تتحرك ولا تجلس.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**)). [البخاري]

ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الهم والكسل فالغالب في المهموم أن نفسه تدعوه إلى الكسل، وفي الأزمة تدعوه إلى الجلوس والركون إلى الأرض، ولأجل هذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الدعاء.

أحد طرق إزالة الهم عن المهموم هي تحرُّكه وعمله؛ لأن بجلوسه يجتر أحزانه وآلامه، لكنه عندما يتحرك ويعمل ويدخل في عمل الخير والبر، فإن صدره سينشرح.

أخ كان يعمل بإصلاح السيارات فأصاب ورشته بعض الأضرار، فأتى بمعدات بسيطة سهلة الحمل، ثم اتصل بزبائنه وقال لهم: أي عطل في سياراتكم فاتصلوا بي وأنا سآتي إليكم.

هناك أخوات يعملن الآن في مساعدة المتضررين بشيء يفوق التصور من خلال تواصلهن الاجتماعي، والأعمال اليدوية، ودعوة مَن حولهن إلى الخير وبذله.

يروى أن رجلاً كان يمشي في فلاة فشاهد عصفوراً أعمى يقف على الأرض فجلس ليراقبه ثم شاهد بعد قليل عصفوراً يحمل بمنقاره شيئاً من الطعام، اقترب منه ففتح العصفور الأعمى فمه فأخذ منه الطعام، فقال الرجل: سبحان الله لم ينس الله عصفوراً أعمى في فلاة أفأُنسى وأنا عبدٌ من عبيده؟! فترك العمل وجلس في صومعة بجبل وبعد مدة أغمي عليه من الجوع والعطش لأن أحداً لم يأت ليطعمه ثم دخل عليه مجموعة من الأصحاب فرأوه مغمى عليه فسقوه الماء وأطعموه الطعام فصحا وقص عليهم القصة، فقالوا له: لماذا جعلت نفسك مثل العصفور الأعمى ولم تجعل نفسك كالعصفور العامل الذي يأتي بالطعام؟!

تكرر في القرآن الكريم خمسين مرة عبارة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فقال العلماء: هذا دليل أن الإيمان فيه حركة وليس فيه تقاعس وخمول.

كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: (**إني لأرى الرجل فيعجبني حتى إذا علمت أن لا عمل له سقط من عيني**).

وكان سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: (**إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة**).

أحد الإخوة تعطل عمله في هذه الأزمة فقام بحفظ القرآن الكريم وأنهاه خلال سنتين.

وردت عبارة ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في القرآن الكريم أربع مرات:

1- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [هود: 7]

2- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [الكهف: 7]

3- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾. [الكهف: 30]

4- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾. [الملك: 2]

ففي هذه الآيات استثارة للمؤمن ليعمل العمل الأحسن، فإذا حفظت القرآن الكريم فهناك أحسن من ذلك وهو أن تُعَلِّمَ القرآن الكريم.

إذا كنت تساعد أسرة متضررة فهناك أمر أحسن وهو أن تجعل أحد أصدقائك يكفل أسرة ثانية، وهناك أحسن بأن تشكل جمعية خيرية لمساعدة المتضررين، وهناك أحسن بأن تعمل في جمعية ثانية ... بدون توقف.

جمعت لكم بعض المصطلحات في القرآن تحوي (التي أحسن):

أ. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. [المؤمنون: 96]

فإذا أساء أحدهم إليك فلك أن تدفعه بإساءة، أو بالحسنى، أو بالتي هي أحسن.

ب. ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. [النحل: 125]

يمكن أن يكون حِوَاري بالإساءة ويمكن أن يكون بالحسنى، ويمكن أن يكون بالتي هي أحسن.

ت. ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53].

بإمكانك أن تتكلم مع زوجتك بكلام قاس، أو بكلام حسن، أو بكلام أحسن.

قرأت مرة كتاباً مؤلفاً من ثلاثمائة صفحة؛ لأنني متوقع أن أجد فيه خيراً وفي نهاية الكتاب استخلصتُ جملة واحدة.

ث. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46].

فمصطلح الأحسن مادة قرآنية أصيلة فيها حَثٌّ للمسلم للبحث دائماً عن الرُقِيْ.

من عادة النسر أنه لا يطوي جناحيه ما دامت هناك قمة لم يصلها بعد.

متى يعطى الإنسان هذه الهمة؟

1- **الإكثار من ذكر الله:** فالإكثار من ذكر الله تعالى يجعلك لا ترضى إلا بحصولك على أعلى درجات القرب من حضرة الله تعالى.

2- **مصاحبة أصحاب الهمم العالية:**

وما ابتلي إنسان ببلاء أصعب من علو الهمة؛ لأن آماله كبيرة وآلته (الجسم) لا تساعده فيموت وفي نفسه آمال لم يبلغها.

من أجل هذا -أيها الإخوة- كان الصحابة رضوان الله عليهم كثيراً ما يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أسئلة عن الأحسن.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ:** ((إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ))، **قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:** ((الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))، **قِيلَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:** ((حَجٌّ مَبْرُورٌ)). [البخاري]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: **سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ:** ((أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ وَقَالَ اكْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ)). [البخاري]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ:** ((تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)). [البخاري]

فهكذا تعلقت همم الصحابة رضوان الله عليهم بالأشياء العالية بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبإكثارهم لذكر الله.

قيل: **(لو أن امرأً تعلقت همته بالثريا لنالها)**.

ترى طلاباً يبعثون لنا بأوراق مكتوب عليها: ادع الله لنا بالنجاح، وبعضهم يرسل لنا بأن ندعو له بالتفوق، فمن طلب التفوق يستحيل عليه الرسوب، أما من طلب النجاح فاحتمال الرسوب عنده قوي جداً.

هناك قواعد عامة في الأحسن:

1- العمل الجماعي أحسن من العمل الفردي:

صلاة الجماعة أحسن من صلاة الفرد.

إقامة جمعية لمساعدة الأسر المتضررة أحسن من مساعدة أسرة متضررة.

مؤازرة مؤسسة للتعليم الشرعي أحسن من أن تكفل طالب علم شرعي.

فهذه الأعمال إذا قمت بها ثم توقفت أنت عن العمل لسبب من الأسباب فإن العمل يبقى في مسيره.

2- العمل الدائم أحسن من العمل المتقطع:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: **سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ:** ((**أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ وَقَالَ اكْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ**)). [البخاري]

فإذا كنت أصلي في كل يوم ركعتين قيام الليل من أربعين سنة خير من أن أصلي اليوم عشرين ركعة قيام ليل وعشرين يوم لا أصلي شيئاً.

إذا حضرت مجلس علم في الأسبوع خير لي من أن أحضر في هذا الشهر كل يوم درس ثم أنقطع عن الحضور لسنتين.

لديه صدقة يخرجها في كل يوم جمعة مثابر عليها خير من الإنفاق الكثير ثم الانقطاع.

يصوم كل اثنين وخميس أو ثلاثة أيام من كل شهر خير من أن يصوم رجب وشعبان ورمضان ثم لا يصوم نوافل لعشرين سنة.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: (**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ...**). [مسلم]

3- الفرائض أحسن من السنن:

إنفاقك على أولادك فريضة فهو أحسن من سنة الإنفاق على الأيتام الغرباء.

نفقتك على أهل بيتك فرض وهو أحسن من خروجك إلى الحج النافلة.

4- العمل ذو النفع المتعدي أحسن من العمل ذو النفع القاصر:

أيهما خير لي أن أجلس في بيتي لأذكر الله وأقرأ القرآن أم أن آتي لأحضر الدرس، أو ألقي محاضرة عليكم؟ فحضور الدرس أحسن؛ لأن هذا الدرس فيه نفع متعد وقراءة القرآن الكريم فيها نفع قاصر على نفسي.

5- العمل المقترن بالإبداع والتطوير أحسن من العمل الخالي عن الإبداع والتطوير:

أحياناً تجد إنساناً له عمل روتيني من خمسين سنة لم يتغير فهو أمر حسن، لكن الأحسن أن يقوم الإنسان بالعمل ثم يطوره ويحسنه ويوسعه ويفتح له آفاقاً جديدة؛ لأنَّ فيه إبداعاً وتطويراً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

تعالوا لنستخدم هذه الزينة من مال أو ذكاء أو قوة أو جمال أو جاه... لنستخدمهم في العمل الأحسن لنكون من أحسن الناجحين على هذه الأرض.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ .

الصعيد: أي الأرض.

الجرز: التي لا نبات فيها.

فسيأتي يوم تتحول فيه هذه الأرض بالزينة التي عليها والناس الذين عليها إلى صعيد أرض لا نبات فيها؛ فأسرعوا قبل أن تتحول.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.